قاسم بين الديمقراطي والعربي

لمرتين اثنتين شاهدت قائد ثورة تموز عبد الكريم قاسم عن قرب شديد. في المرة الاولى كنت مع وفد طلابي زاره في مكتبه بوزارة الدفاع. وكان ما يعرف بمؤامرة عبد السلام عارف تتصادى في الاجواء، والحياة السياسية حبلى بالانشقاقات والنوايا الخطيرة. وكان وفدنا الطلابي يؤكد هذه الحقيقة، اذ حملنا فوق رؤسنا لافتتين بشعارين مختلفين حسب تعابير تلك الايام يحييان الزعيم: عاش الزعيم الديمقراطي! والثاني: عاش الزعيم العربي!. وكان هناك غضب داخلي واحتدام ونظرات قاسية متبادلة بين فريقين يتباريان في اقناع الزعيم ان يختار بين ان يكون ديمقراطيا او يكون عربيا. وكما كان متوقعا فقد جلس الفريقان متباعدين عن بعضهما البعض، يحيطان بالزعيم الذي كان يعتصر بين الحين والحين منديلا ابيض في كفه اليمنى.

ما من مسافة يجب ان تقطع بالهاث ما بين الديمقراطي والعربي، وليس ثمة اختلاف اصلا، فأن تكون عربيا لا يعني ان لا تكون ديمقراطيا. لكن على اعتاب الانشقاق الكبير حملت دلالات جديدة. فهذان الوصفان اشارا انذاك الى ضربين من الانتماء السياسي: الديمقراطي ينتمي الى الشيوعيين وحلفائهم، والعربي ينتمي الى القوميين العروبيين بمختلف فصائلهم.

بعد هذا الزمن وحين استعيد هذا المشهد الانشقاقي، ينتابني احساس باننا كنا ممتلئين عن قوتين تجريبيتين علقتا برقبة هذا الرجل حبلا واخذتا تشدانه كلا باتجاه مغاير. كنا ممتلئين بالعنف، وتدريبنا السياسي لا يتجاوز الاحساس بالانتماء العشائري الاعمى الى احزابنا السياسية المحتربة. ولم نأت الى هذا المكان لكي نسمع ونفهم بل لكي نوصل رسالة ونستعرض قوانا ونضغط على زعيم الثورة.

كنا هناك اذن، في مكتب متواضع، بلا حراسة، ولا عدسات تصوير تبرق في وجوهنا، وكان الزعيم في وسطنا يتحدث عن مؤامرة عبد السلام عارف في اغتياله.

لقد وصف الحادث من دون اي نعت يسيء الى رفيقه، بلا توضيحات سياسية، ولا سرد لمواقف سابقة تشي بوجود نوايا مبيتة، هكذا: سحب مسدسا، ثم انتزع منه، ثم راح مرتبكا يردد انه اراد الانتحار وليس الاغتيال.

هذا ما اذكره من قصة بدت لي آنذاك سخيفة جدا. وهي موصوفة كفاية في المحاكمة التي جرت لعبد السلام عارف وانتهت بالعفو عنه. إلا انني لاحظت ان الراوي كان قد اصدر عفوا في داخله منذ هذا الحادث والباقي كان مجرد تأديب من صديق الى صديقه. لم يتحدث عنه كعدو، ولا ماذا مثل فعله من الناحية السياسية، وبدا الامر كأنه حادث جرى بين صديقين في ساعة حمقاء. لكنه لم ينس في لهجته المحايدة ان يشير ضمنيا الى انه هو عبد الكريم قاسم بري، وانه الان لا يقوم بالدعاية، بل يفكر بالجمهورية ومستقبلها ليس إلا.

ثمة امر لاحظته في تعابير الزعيم، الوجهه يشي بالقوة والرفعة والسماحة. لكن بين الحين والحين كانت عيناه تبرقان على نحو جنوني، وفيهما شيء من تفكر داخلي لا يجد طريقه الى الظهور بالكلمات.. شيء محبوس، كئيب، واخرس. وكان في مثل هذه اللحظات يتقن تلافي ذلك الشيء بابتسامة صريحة وعذبة.

لم يكن يحسن الكلام الادبي المنمق، وثمة عدم توافق بين تنفسه وكلامه، مما يوحي بانه لم يتدرب كفاية على التحديث العلني، بل لم ينتبه الى ذلك. فقد بدا لي انه لا يعرف الكثير من اهدافه حين يتكلم، فكان يجرب من دون ان يبدو عليه انه يتسلى بمستمعيه. لكنني لن انسى ابدا انه كان ينظر الينا نحن الشباب على نحو خاص جدا، على نحو.. كيف اقول هذا.. يريد منا ان نحبه.. نعم.. كان يريد منا ان نحبه، واكثر من ذلك، ان نصدقه. واظن الآن انه في ايام قوته ومجده، ثم في الزعازع التي مرت فوقه ومن تحته، كان يطلب منا ان نحبه ونصدقه.

تأكدت من هذا عندما رأيته في المرة الثانية. كان الزمن قد تغير، وكنت لا احب الزعيم عبد الكريم قاسم. لا اقول انني كرهته، إلا ان طريقته في الحكم لم تعد تعجبني ولا تتفق مع ميولي الليبرالية. واظن ان الكثيرين كانوا يشاركونني هذا الرأي.

كنت وصديقي نسير مساء عند الاستدارة المنعطفة من ساحة التحرير الى شارع الجمهورية تماما عندما مرت سيارة الزعيم مبطئة، وكنا نقربها في الشارع، بحيث قجه سائقه قليلا الى اليسار نحو الرصيف.. ورأيته، الوجه بالوجه، وجلوسه المتصالب على المقعد الخلفي، مذ ذراعه محييا ومبتسما، إلا انني لم ارفع يدي لرد تحيته ولم ابتسم. كنت انظر في عينيه، في وجهه، في ابتسامته البريئة المشرقة، مرتديا قناعا جافا معدا لانكاره وتجاهله وعدم المعرفة به. صديقي شعر بالحرج، إلا انني امسكت يده وافهمته ان لا يفعل. عرف الزعيم ان ثمة ارادة وفجوة تتحداه، اختفت ابتسامته وحل محلها تساؤل مستغرب طفولي، وعندما اجتازتنا سيارته، ادار رأسه الينا، متدهشا من هذه القسوة غير المبررة، وظل هكذا حتى غاب في عمق الشارع.

ما زلت حتى الان اتعجب من نفسي: من اين جاءتني هذه القوة وعدم التهذيب؟ ألا يجوز انني كنت ادرك انه لن يعاقبني.. لن يعاقبني هذ الذي كان الناس يلومونه على صفحه؟

لكنني لن انسى ما حييت تعبير رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة الأسر والمخفق: لماذا؟ ما الذي فعلت بكما حتى تتنكرا لي؟

بعد الثامن من شباط، رأيت الزعيم في التلفزيون مذبوحا يبصق على رأسه جندي باسل، واستعدت وجهه الذي قال لي: لماذا؟ ما الذي فعلت..؟

لقد تأكد لي ان عبد الكريم قاسم الذي واجه اعدامه بشجاعة، ومات كجندي باسل، هو انسان ضعيف خشي ان لا نحبه.

ثم كبرت، وهرمت مئات المرات، ولم اعد أبالي بالسياسة، وكرهت ان أحب او أحب، إلا انني مازلت احتفظ بذلك الوجه المتسائل في داخلي: كنت بدأت احترمه.

الاتحاد والوحدة

عندما تفجرت ثورة تموز لم أكن في العراق وقتها، بل في دمشق مع عائلتي. كان بيتنا نصف شقة او اصغر في الطابق الرابع حيث السطح.. انها شقة سطوح اذن. وكنت انام على السطح ملتحفا بغطاء خفيف، وفي الفجر ادخل الشقة بسبب برد الشام. وفي ذلك الصباح مارست هذا الطقس. فرشت الغطاء

عبد الكريم قاسم يزور مستشفى الحلواني في الشيخ عمر

ترجيعات لرجل ولد في الأول من تموز بقرار

سهيل سامي نادر

تحتي واستلقيت محاولا العودة الى النوم. كان أبي قد اعتاد الاستماع الى نشرة اخبار دمشق الصباحية، وكنت ما بين النوم واليقظة افكر بأن اليوم عطلة كأن وراثي عملا ما وفجأة اهتزت الارض.. اذيع الخبر.. الجمهورية!.

لاول مرة رأيت ابي يرتعش من الانفعال وهو الذي اعتاد ان يكبت انفعاله.

دق الجيران بابنا مرارا وامتلأ البيت بالمهنئين. خرجت برفقة ابي واخي الاصغر الى ساحة (المرجة)، حيث انطلقت تظاهرة اشترك فيها عراقيون وسوريون. احد العراقيين صعد على كتف احدهم والقى بقصيدة اتذكر نصف بيت منها:

نوري السعيد اتق فالناس احرار...

صاح به شامي طريف: شو.. ما مات! وضحكنا.

بعد ان انتهى اليوم الاحتفالي اخذنا نتعلم حوائجنا وانفسنا للعودة الى الوطن بشوق.

بدأت الاشياء تتضح، فالجمهورية باتت واقعا سياسيا تمتلك الدعم الشعبي. وبموازناتها اخذت المواقف السياسية والاهداف الحزبية تظهر تباعا بكفالة حرية شبه كاملة. وبدأت الاحزاب تعبئ الشعب لبرامجها. الشيوعيون العراقيون في سوريا، وجلهم من اللاجئين، انتهوا الى رفع شعار الاتحاد الفدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة. قد لا يعرف الكثيرون هذه الحقيقة، فهذا الشعار ولد حقا في سوريا وليس في العراق، لكنه بالتأكيد غادر الى العراق على عجل من اجل تأكيد الحضور السياسي في مناخ عروبي اجتهته ثورة تموز، ودعم الجمهورية العربية المتحدة لها، وفي اجواء من الهستيريا الاستعمارية، ومخاوف التهديد العسكري ضد الثورة الوليدة.

انطلق تحليل الشيوعيين من اعتبارين، الاول ان الاتحاد الفدرالي قد يكون صيغة هيكلية مناسبة لتضامن عربي فعال وعاجل في مرحلة ثورية تعبوية. والثاني استند الى التجربة الوحدوية القائمة بين سوريا ومصر والتي كانت تعاني من الصعوبات، لا سيما في مسألة الديمقراطية. قد توجد هواجس للحزب الشيوعي السوري في هذه النتيجة، ولن نكون على خطأ كبير اذا ما قلنا ان الخوف من السياسات اللاديمقراطية، التي اتبعها عبد الناصر، حاضر فيها. هذا الخوف لم يعلن صراحة بل احتفظ به ليظل الشعار متماسكا في بؤرة واحدة كمعادل سياسي لشعار الوحدة الفورية في افق لم يتضح بعد، وضمن اصطفافات سياسية آخذة في التشكل. ازاء ذلك كان شعار الوحدة قد رفع اصلا في الداخل من الايام الاولى للثورة ومن دون تحفظ ومساءلة، محتكما الى تجربة الوحدة السورية المصرية المحملة بالوعود التاريخية ومستندا الى شخصية جمال عبد الناصر الشعبية الطاغية.

وحدة ام اتحاد؟ هذا يشبه، مع الفارق، انفصال الديمقراطي عن العربي في الحكاية السابقة، إلا انه في هذه المسألة، مثل انشقاقا سياسيا كبيرا سحب اليه جميع التركيبات الايديولوجية، والمراجع الاجتماعية المحلية، والرموز، والافكار، دافعا جماهير غفيرة غير مدربة سياسيا الى ساحة عبثية يسودها التناحر والعداوة في مجتمع حصل على حريته توا، ولم يحل مشكلة بعد، ولم يجرب نفسه في اي ميدان.

ان العمل السياسي في العراق هو اقرب الى عروض الارادة منه الى التفاعل مع الواقع الاجتماعي والتشكلات التاريخية له. لقد ابقى التاريخ الاستبدادي في العراق المشكلة السياسية من دون حل، وبسبب عدم وجود اي افق للنضال السياسي الديمقراطي، اختزلت المشكلة السياسية الى مشكلة سلطة، والقرب تمثيل للسلطة هو الارادة، ارادة الشخاص او احزاب او افكار او شعائر. والارادة تبعد اي عنصر من الواقع يتمرد على التحليل، ولا يستجيب له وقد يباد او يرحل الى تاريخ آخر.

من الغريب ان نتعلم الموضوعية من الخسارة واليأس والتقدم في السن

لا يرى الخصوم السياسيون عندنا خلافاتهم السياسية مادة قابلة للنقاش والتحليل الاخويين بل مادة للتأكيد الذاتي، وبقدر ما يحذفون الوضعية التاريخية التي ينطلقون منها، ينسبون للرأي المعارض لهم انه يعبر عن مصلحة ضيقة. ومن المؤكد ان كل رأي يعبر عن مصلحة ما، لكن مقابل رأي يرى في نفسه معبرا عن مصلحة الجميع، لن نغدو المصلحة الضيقة سوى اتهام اخلاقي وسوء نية. ان فكرة المصلحة سوف تختزل كبضاعة اخلاقية فاسدة في حين انها حقيقة موضوعية من ديماغوجية شعبوية. اما قادة تموز فوجدوا انفسهم في (موقف) لم يتوقعوه، ثم سريعا ما انزلقوا فيه من دون اي اعداد سياسي وثقافي، مما فجر الموقف في مركز اتخاذ القرار. لقد انزلق الجميع اذن في مسألة ذات بعد تاريخي معقد مستخدمين فيها وسائل سياسية مباشرة ومبسطة.. فقضية يقع حلها عند الفق ما بعد عملية تغيير اجتماعي واقتصادي وثقافي.

لا حظوا ما جرى: برر الشيوعيون الفدرالية بعدم توفر الشروط الموضوعية للوحدة ولم يناقشوا كيفية تجسيد الاتحاد الفدرالي شعارهم. وطرح القوميون مشروع الوحدة بوصفها حلا لمشكلات الامة كلها من دون ان يقدموا اي تحليل سوسيولوجي وثقافي لهذه المشكلات. ما من افق اذن فلماذا هذان الشعاران وعن ماذا يدوران؟ انهما تجريدان، حجتان، والصراع السياسي قامت به مجموعة من الثعالب، وسينتصر فيه الاسود على طريقتهم: افتراس ثورة تموز!

لقد جاء البعثيون الى السلطة، ثم القوميون، ولم تتحقق الوحدة. واقيمت وزارة للوحدة اثبتت ان المقصود هو اقامة مهزلة مكتبية. لقد ضاع وقت ثمين من اجل لا شيء، وسفكت دماء من اجل لا شيء، وبددت موارد من اجل لا شيء.

أليس غريبا ان شعارين ينتهيان الى توحيد ما، انتهيا حقا الى تمزيق شعب؟ كيف يمكن ان نقام وحدة بشعب ممزق؟

حتى هذه اللحظة يواصل البعض ذلك الانشقاق البائس والتجريدي، باعادة تأسيسه على اقامة تعارض بين وحدة غير قائمة والدولة القطرية، وبين الدولة القومية والدولة القطرية، وباعادة امثلته بالوحدة الاوربية المتشكلة من امم غير متجانسة. لكن ليس ثمة امثلة عربية بل هناك مبادئ، والاعيب ارادة، وتمنيات، واقتراحات، ونضال يجري بتوقيتات خاطئة ترصد له اهداف تكتيكية تلتقي في النهاية بالدكتاتوريات والتاريخ اللاديمقراطي.

المحصلة ان ثورة تموز الشعبية دبست بالاقدام، ومكاسبها اضحت دخانا، اما اولئك الذين ارادوا تحرير فلسطين فقد خسروا اراضي عربية جديدة، وارادوا القضاء على الشعوبية فانتصروا على المثقفين اليساريين والديمقراطيين وغير الديمقراطيين، وخططوا للتنمية فاذا بهم يفتحون الاسواق الحرة. وهاكم ما حصل عندنا: لقد تحولت الدولة القومية الى اكبر كومبرادور.. وهل الكومبرادور قادر على توحيد شيء وتحريره غير السكوك؟!

ساحة التحرير 1959

حقائق الوضعية التاريخية التي تربط الخصوم ببعضهم البعض مثلما تباعدهم عن بعضهم البعض لانها تعمل خارج ارادتهم، معهم وضدهم في آن.

وثمة حالة تبدو عراقية بامتياز، حين الخصم يتهم خصمه بخيانة مبادئه هو. بهذا المعنى لا يعدو الخصوم غير خونة، اما العمل السياسي فلن يحسب صيرورة لتخارجات موضوعية لا شخصية، بل سيحسب، مع الخصم السياسي، مادة للاسقاط السيكولوجي والتمثيل الاخلاقي الذاتي.

ان عملا سياسيا يجري بهذه التقاليد لن ينتصر فيه غير الاوغاد والانتهازيين والاعداء الحقيقيين للشعب الفارغين والحمقى والمتسلقين والمزايدين.

وحدة ام اتحاد؟ لكن الوحدة جيدة، والاتحاد جيد، وقد يكونان سيئين في بعض الشروط. فليس المهم شعار تدفع به ارادة الى العمل، بل المهم هو خلق قاعدة سياسية واقعية للنقاش بصدده تحافظ على الوحدة الداخلية، وتلجم التدخلات الخارجية، وتتمسك بالثوابت الوطنية غير المتنازع بشأنها.

في عام 1953 لم يفكر احد بخلق مثل هذه القاعدة لانها اول ما تستدعي خلع المعاطف العقائدية وتعليقها على مشجب قبل الدخول الى ساحة النقاش. لكن المعاطف العراقية تلبس ولا تخلع واذا ما خلعت فبالخيانة والكوارث والموت والعزلة.

بغياب تلك القاعدة اضحى شعارا الوحدة والاتحاد يثيران الانقسام الداخلي، وبلغا ضربا الطقس التموزي السلطوي، وبدا لهم بريئا ورمزيا ووحدويا. انتبهت الى هذا الامر في ما بعد، عندما بدأت السلطة تتخذ قرارات مميتة بالنيابة عنا وباسمنا واسم رموز عراقية او عربية تاريخية. ان من يوحد تواريخ ولاداتنا يستطيع ان يميتنا متى شاء. فالطقس الرمزي يتحول، فبينما هو يوحد ويماثل فرديا تنا ويفقدها اهميتها يختلق حالة لا يعود بالامكان التحكم بها. وكيف يمكن التحكم بها ما دمنا لم نعد نحن، وما دمنا متماثلين، كما لو خرجنا من آلة واحدة ختمت علينا علامة فارقة موحدة خرقاء!

يفقد الطقس الرمزي فردية التواريخ ايضا بتاريخ املس لا توجد فيه تفاصيل كائنا في طقس بدائي لا تاريخي يتشكل فيه مفهوم القيمة الاجتماعية بالفعاليات نفسها التي يشترك فيها الناس كل عام، وتتكرر فيها الاحداث نفسها.

الهدف من ذلك هو توحيدنا في حالة واحدة، تستقل وتفكر بالنيابة عنا وتضحي سلطة اخرى، مشتركين فيها، تدعونا، تريدنا، تطلق اوامرها ليل نهار، وتأخذ منا ما تشاء من الاضاحي، لكأننا قطيع من الخرفان بلا اسماء وتواريخ وعوائل واستعدادات فردية خاصة.

لا اعرف حتى هذه الساعة من الذي قرر توحيد تواريخ مواليدنا، هل هو عبد الكريم قاسم او عبد السلام عارف. ولعل واحدا من المتملقين لهما اوحى لهما بالفكرة، واضعا تحت تصرف القائد المفجر احيالا مختومة. لا نحن لم نزل ندفع استحقاقات ذلك الشقاق البائس. انظروا.. انها في شوارعنا.. الدبابات الامريكية!

تحيا الامة العربية وتسقط ثورة تموز!

الحرية والحياة

الناس الذين ولدوا قبل تموز صدر قرار بتوحيد تواريخ ولاداتهم رجالا ونساء في تاريخ واحد: الاول من تموز!

انا واحد من هؤلاء، وبسبب هذا التوحيد، نسيت تاريخ ولادتي الحقيقي. لكنني لم احتج، كما لم يحتج غيري على هذا التلاعب، وبالعكس، استسلم الجميع لهذا التبرير قهرية او انتهازية، اما عملية تحولنا الى كائنات ملساء او وحوش فستكون لها تقاليد، وسيكون من الصعب علينا ان نتحرر، لاننا كنا قد حررنا عقدا لتنازلنا فيه عن نفوسنا، وتحولنا الى كتلة تجريدية لا حياة فيها.

ان قادتنا الذين حكمونا لم يسألونا او يأخذوا آراءنا في اي قرار اتخذوه، فنحن في حيازتهم اصلا، نقف امامهم خجلين ورعين، نخافهم، نبجلهم، نعظمهم، وسوف تأخذنا رجفة مقدسة من الحب من دون ان نحب، ولسوف يرّدادون ضخامة ونزداد صغرا وصغارا، وسوف يروننا صغارا ويحبوننا.. نعم.. سيحبوننا.. وستأخذ بهم رجفات مقدسات من هذا الحب، ولسوف يطالبوننا بالمزيد من الحب كلما احتاجوا الينا، وكلما قادونا الى تجارب قاسية.. وفي عز التجارب القاسية يظهر الحب دمويا أسرا مثل شفق احمر.

اذكركم بحكايتي الاولى عن رئيس الوزراء الذي خشي ان لا نحبه. كان انسانا طيبا، حالما، ساذجا، لكنه كان عسكريا بميول دكتاتورية هلم يستشرنا، وقبل كل شيء امتلك الفرصة لكي يباشر ببناء مؤسسة للعقد الاجتماعي يلتزم هو قبل اي انسان آخر بحدودها القانونية، والتي تمثل مصالحنا بوصفنا جماعة حرة.. لكنه لم يفعل.

في ما بعد تعين لنا ان نستسلم لرجل فاشي كان يملك الف رجفة ورجفة للحب ومن الحب، متنازلين له عن كل شيء، حتى حياتنا: كان قد تزوجنا!

القادة العراقيون، مطلقو الصلاحية، الاحرار، الاقوياء، كانوا يمتلكون القدرة الذاتية على صنع نوبات من الطهرانية الجماعية الرمزية، مع احمرار العين من دمعة حرى تأبى الانزلاق بسبب ضبط رجولي.. ثم بسبب الحب، وبسبب التجريد السياسي، وبسبب شوق ناتج عن الوحدة والافتقار الى الحب والحياة. وكان بامكانهم دائما اتهاب نفوسهم بالغضب، وتمثيل الغضب، من اجلنا، نحن الذين لم نعد احياء، بسبب قوتهم التجريدية، وسلطاتهم المتعالية.

اعجوبة ان نولد في يوم واحد، لكن ما الامكانية من ظهور اعجوبة اخرى: ان نموت في يوم احد!

من رضي بالاولى قد يقبل بالثانية.. وامكانية الثانية كانت متوفرة على اية حال.. وما زالت قائمة.

ان الوطن العراقي صانع رموز من الطراز الاول، وبسبب شؤم ما، كانت الرموز تتناسل وتتوالد، فاذا بنا ننام ونستيقظ عليها، نرسم بها، نكتب لها، نعيد انتاجها، وما كنا في الحقيقة غير ادواتها. ونحن الذين لم نتعلم من سلطة الحياة التي فينا، وهي الوديعة الالهية المقدسة، تركنا لسلطة الرموز وللسلطات التي تنتجها على نحو احتمالي ان تستولي علينا كليا. فما الذي تبقى للحياة.. حياتنا؟ لا شيء.

الان.. في هذه اللحظة الفارغة من التاريخ السياسي العراقي، حيث تجوب فيها الدبابات الامريكية شوارعنا، يبدو الفكر السياسي العراقي مطوقا بفكر اليوتوبيات المستحيلة، مطوقا بتاريخ هائل من العسف والانحطاط، بدون امثلة مهمة، واذا ارادها فعليه ان يمتثل الى حالة انتقائية مثيرة للشفقة، فما الامكانية ان لا نحارب بعضنا البعض في شعارات مستحيلة معدة للاحراج والنذالة والشانتاج، كما فعلنا سابقا، بعد ثورة تموز؟

دعوني استرجع تجربتي الشخصية هناك، في ذلك الصباح من عام الواعد لانني اريد ان املأ هذه البرهة الفارغة من التاريخ بدروس الشباب الذي كناه والذي غادرناه باغتيال صريح لامانينا. في ذلك الصباح، وفي مظاهرة دمشق، شعرت بانني اولد من جديد داخل جماعة وطنية جددت نفسها بالثورة. كنت شابا، وشاعريا بعض الشيء، مما اهلني ان اكون واحدا ممن تصيبه الرجفة المقدسة او من منتجي الرموز. لم اكن امتلك الكفاءة والتجربة اللتان تؤهلاني لان لا اليس الزي الموحد وان انتبه الى مخادعات الوضعية القائمة على التبارز بشعارات لا يمكن تحقيقها. في ما عدا ذلك كنت مكفولا من عائلتي، ومن وطني الذي تحرر توا.. مكفولا على الطريقة العراقية، بمعنى ان لا استطيع حيازة خبرة جديدة إلا اذا خسرت كل شيء، واكثر من هذا، ان اكون محاطا بتوقعات صارمة. ان اجيالا من العراقيين لم يحصلوا من شبابهم غير هذا، ولست الوم احدا هنا، اذ ان نظام المكفولية كان حقيقة تاريخية اجتماعية وليس مرضا من الامراض، على الرغم من انه حد من قوانا الشخصية المستقلة وعلمنا الاحتراس والخوف. وكانت هناك آمال الشباب العريضة، والحماس، والقراءات الجديدة، والصداقات الرائعة، والتجارب المكتسبة من التفاعل الشعبي، والكثير من الانتياد والحماسية لمصاعب العدالة والشرف والكرامة. وببساطة شديدة وضعنا ثقتنا بالحرية التي حلقت فوق رؤسنا فحلقنا خلفها.. وفجأة سقطت وسقطنا، ثم انقسمنا، وحاربنا بعضنا البعض بلؤم غير عاد، لم نكن نتخيل اننا نمتلكه.

مبكرا جدا حلت بنا الكآبة في انفسنا، وفي وطننا، وفي افكارنا. لم نعد نصدق شيئا وان تظاهرنا اننا مصدقون شيئا. لقد غررت بنا الحرية من اول تحليق.. وليس ثمة الم ممض اكثر من ان تغرر بنا الحرية وتخسف بتوقعاتنا منها ما دامت قد مثلت شبابنا وافكارنا وآمالنا بمغامرة في الحياة مثيرة.

اعود الى حكايتي الاولى، فحين ابتسم في وجهي عبد الكريم قاسم ولوح لي، لم اجد في نفسي غير الرغبة في العصيان والانكار. اردت ان اقاوم واحتج واجرب قواي. كان بالتأكيد طبيعيا جدا لهم يعاقبني، وبالعكس اظهر لي وجها طفوليا اوذي لسبب مجهول. لم يفهم. دخل في عمق الشارع مديرا رأسه نحوي باستغراب. لم يفهم، ولا اظنه فهم شيئا مما كان يحدث، بل مارس هو الاخر اللعبة الانشقاقية. لقد كان ساذجا في معركة لا يجيدها.

في ما بعد اعتدت اللامبالاة. وكان تدريبي الحقيقي هو اليأس.. واليأس الفعال الذي يتعلم من الخسارة كيف يصبح موضوعيا من اجل ان يعين نفسه على حياته.. وها انا اجتزت الستين. فهل اقول انني تعلمت شيئا؟

أليس غريبا ان نتعلم الموضوعية من الخسارة واليأس والتقدم في السن؟ متى نتعلم من الحياة والحرية وهما المعلمان الحقيقيان لموضوعية انسانية باحثة ومتعلمة ومهنية وقادرة على الحب والتضامن والعمل المشترك؟!

متى توجد حياة في العراق؟

متى تولد الحرية في العراق؟

متى نجعل من اختلافاتنا عنصرا مكملا وطبيعيا لحقيقتنا الوطنية والقومية والانسانية.

بهمني ان اعرف ما دامت الحالة مؤكدة فقدت بها تاريخ ولادتي. يقال ان ذلك حدث لاغراض عملية نظرا لاخطاء التي تحفل بها سجلاتنا المدنية. لكن لماذا تواريخ الميلاد، في حين ان سجلاتنا المدنية لم تكن في يوم من الايام واضحة وسليمة في كل شيء، مرة بسبب جهل الناس، ومرة بسبب جهل الموظفين، ومرة بسبب خوفنا من السلطات! ان السلطة لم تكن على وفاق مع (سجلنا المدني) منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة، وهي التي قبضت على المجتمع المدني بيد من حديد، وزورت ارادته، وتعاملت معه كمجموعات منفصلة من الرعايا. كانت السلطة تتحرى عنا ونحن نخادع، ثم تلقي القبض علينا في حيلة من حيلها (المدنية) لتأسرنا وتفعل بنا ما تشاء.

يمتلك القادة العراقيون بالدم شيئا من روح الدرويش الباحث عن المريدين، ولسوف يصنعون مريديهم في النهاية بطقوس رمزية تبدو بريئة جدا مستفيدين من غفلتنا، ومن رمزيتنا - فنحن شعب منتج للرموز - ومن خجلنا الاخلاقي الذي هو في الاصل توافقي، ومن عشائريتنا التي هي في الاصل تعارضية، مهيئين الاذهان لفعاليات مميتة.

ان التاريخ السياسي للعراق الملىء بالعنف والصخب جعل من العراقيين افضل من يولد الرموز من دون ان يستطيعوا استهلاكها بسرعة كعادة شعوب الارض المتحررة، واكثر المسترجعين النوستالجيين للماضي، المتحسرين، اللائمين، الجوعى الى الحرية من دون ما امل او امكانية للنضال والعمل على اسس ديمقراطية. انهم ايضا من منتجي قادة تأخذهم الرجفة المقدسة الصوفية اثناء العمل، واثناء التفاعل بينهم والشعب، ولسوف يقومون بدورهم في صناعة حالات تكون فيها الرجفة جماعية، ولاسيما عندما يسفك فيها دم الاضاحي، مع الاغاني والاهازيج.

عندما امتلأت افواهنا بالدم في العهد السابق استعدنا عهودا سابقة كعصر ذهبي. حتى هذه الساعة يرى البعض ان العهد الملكي يمثل عصرا ذهبيا للعراق، متناسين او غير مبالين ان في هذا العهد اقيمت دولتنا الحديثة على واقع مخاوفها من المجتمع الذي تمثله. وقد اسست تقاليد للحكم لا تعرف من الديمقراطية غير دستور اضحى على يديها مسخرة من المساخر. وقد تسلم الانقلابيون القاسميون والثوريون العروبيون هذه التقاليد نفسها وزادوا عليها من ابتكارهم ما شاءوا. ان الحماقات قديمة كما ترون. والدولة العراقية معدة لكي تركبها الانظمة السياسية، فقد ولدت في لحظة توازن ضد الخوف، ثم قامت بتصنيع الخوف للمحافظة على ذلك التوازن، ثم اختلت بالتوازن لصالح الخوف.

البعض يرى في نظام قاسم عصرا ذهبيا، والبعض يراه في نظام عبد الرحمن عارف، فالفارزين على اخيه الطائشي. ولم لا؟ ان جمهورية الخوف هي التي تؤسس للعصور الذهبية خلفها، والانظمة الفاشية هي التي تؤسس ليوتوبيا المستقبل، حيث يتماثل غير المتماثل، وتسحق مقاومة الناس لتستحيل الى طحين املس متماثل. وقد عبرنا من الدكتاتورية الى الفاشية في خط حتمي، عندها استبدل الناس بوتوبيا المستقبل بيوتوبيا الماضي.

والرموز تسترجع هذه العملية من دون تدقيق، فاليوتوبيات لا تدقق. انها هي الاخرى تسحق اللامتماثل، حتى لو بدت انها تمتلك ثقافة شعبية وآمالا بالتغيير.

ما ان نخسر شيئا من انسانيتنا وحقوقنا ونتصرف بلا مبالاة حتى تبدأ عجلة تحولنا الى كائنات ملساء بلا هوية، وقد تحولنا الى وحوش. ليس مهما اسم القائد الذي يقودنا، فنحن اذا قبلنا بالاول في شروط مجحفة نقبل بالثاني والثالث. وستكون لدينا يوتوبيات ناتجة عن الخسارة والندم، واديولوجيات

كيف استبدل الناس يوتوبيا المستقبل بيوتوبيا الماضي